

## محات من أدب أواخر العهد العثماني في مدينة حمص

د. عبد الإله نبهان

### مقدمة:

في عدد سابق من أعداد مجلة التراث العربي (1)، ومنذ عشر سنوات، كنا الممنّا للإمامة العجل بأحوال الشعر في مدينة حمص في أواخر أيام الدولة العثمانية، واستعرضنا بعضاً من أسماء أولئك الشيوخ الذين يقرضون الشعر، ووعدنا بالعودة إلى ذلك الإتمام ما بدأناه.. وما نحن أولاء نعود وقد تجمعت لدينا طائفة من أسماء لم تذكر قبلاً، إضافة إلى نماذج من أشعارهم وقعنا عليها هنا وهناك أو دونها ممن حفظها..

ولا أجد ضرورة لتكرار تلك الخصائص العامة وآفات الركاقة التي اتسم بها أدب تلك المرحلة، لأننا بسطنا القول في ذلك في البحث السابق المشار إليه، وسنبداً بذكر أولئك الشعراء مع مختارات مما وقعنا عليه من أشعارهم على طريقتنا في إثارة الإيجاز ومجافة الإطناب. وإذا كنا قد ذكرنا بعض الشيوخ ممن كانت وفاته بعد عام 1930 فإنما يعود ذلك إلى أن تكوّنتهم العلمي كان قد تمّ واكتمل في العهد العثماني، وامتدت بهم الحياة واستمرّ شعرهم وأدبهم يحمل خصائص المرحلة التي تكوّنوا فيها.

### -عبد الستار الأتاسي: (2)

هو الشيخ عبد الستار بن إبراهيم بن علي الأتاسي، مُفتي حمص. ولد في طرابلس الشام، وأكّـب على تحصيل العلم، وسافر إلى دمشق، وأخذ عن علمائها وقرأ عليهم، ومنهم الشيخ محمد الكزبري والشيخ محمد بن عبيد العطار والشيخ نجيب القلعي والشيخ شاكـر العقاد وغيرهم. وكتاب العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار هو المصدر الأساسي لمعرفة عامة عن الشيخ عبد الساتر، فقد ترجمه ونعته بالمهابة والوقار والإخلاص للحق ثم قال "وله شعر لطيف رقيق، ونثر أعذب من الرحيق، ومفاكهات أدبية ومناسبات لما يُخلُّ بالأدب أبيّة (4)" ومثل هذه الأحكام أو التلميحات النقدية تكثر في



كتب المتأخرين وتنشابه، ونحن اليوم لا نأخذها على محمل الجد، وإن كنّا لا نزرى بها، لأنها تعبّر عن ذوق عصرها على نحوٍ ما. ويعود عدم الأخذ بها على محمل الجد أننا نرى أن النماذج الشعرية التي هي موضوع الحكم لا ترقى إلى المقام الذي وضعت فيه، ولا تستحق النعت الذي وسمت به، وكان أبو منصور الثعالبي (5) إمام هذه الطريقة في كيل المديح وإسباغ الألقاب ونثرها ذات اليمين وذات الشمال، وسارت بعض كتب التراجم على نهجه وحطبت في حبله. ومهما يكن من أمر فلا بدّ من العودة إلى الشيخ عبد الستار، وقد أبانت ترجمته الموجزة أنه كان كثير التقلّب في طفولته وصباه، فأبوه كان قاضياً ينتقل من بلدٍ لآخر مصطحباً أسرته، فكان ابنه ينتقل معه، ولما أصبح عبد الستار قاضياً فإن مهنته استدعت منه التقلّب.

ولم يقع لي من شعره إلا موشح واحد في مديح الشام قال: (6)

وديار الأنس فيها وطني

حبذا الشَّامُ مَقَرُّ الشَّرَفِ

من صروف الدهر طول الزمن

صانها المولى لطيفُ اللطفا

ويلتفت الشيخ إلى أحاديث الفضائل والآثار التي قيلت في دمشق وما أكثرها، فيحثشد لها ثم ينظمها مبرزاً ثقافته الدينية وتوجهاته الصوفية:

وأحاديث روتها العلماء

کم بها الأخبار حقاً وردت

وخیار من خیاری الحرمہ

وَكَيْفَ الْأَبْدَالُ فِيهَا سَكَنْتْ

وإليها يفتنى أهل الحمى

خيرة الله تعالى قد غدت

مَنْ بِهِمْ يَشْفَى عَليُّ الْبَدَنِ

فہمی دار الاتقیاء الحنفی

وَكَذِي الْكِفْلِ جَزِيلِ الْمَنِّ

کتابی اللہ "یحییٰ" ذی الوفا

وفي الدور الثاني من هذا الموشح انتقل الشيخ إلى ذكر الأتقياء من العابدين الساجدين في رحاب مسجد بني أمية، وصوّر ما يعترتهم من خشوع وخضوع في حضرة ربّ العالمين، وذكر شوقهم إلى الجنّة وإلى مجاورة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم:

فِي دِيَارِ الْجَنَّةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامَ

جامع الأمويّ حاوي العابدين

ووجوه زانها نور القيام

فی خشوع لو تراهم ساجدین

## جَنَّةُ الْفَرْدُوسِ فِي دَارِ السَّلَامِ

يسألون الله رب العالمين

ويختتمها بالقفل:

أحمد المختار أوفى محسن

وجوار الهاشمي المصطفى

## \*\*\*\*\* القرائـ العربي \*\*\*\*\*

مَنْ لَه قَلْبٌ رَحِيمٌ قَدْ صَفَا	والد الزهراء جد الحسن
ويطيب للشيخ أن يختتم موشحه في أحضان الطبيعة مستدعياً ذكرياته الغابرة وأيام صباه الآفلة:	
كم رياض مغ غياض حولها	وبساتين زهت بالنيربين
وقصور عاليات كم لها	وعيون فائقات كل عين
وسرور وحبور حأها	تجمع الشمل الذي من بعد بئن
طالما قضيت عمراً سافا	بين أحباب وثثم فطن
حينما قد كنت صبياً ديفا	خالتي الأفكار من عيش هني

توفي الشيخ في "معان" بالأردن وهو عائد من الحج، وكانت وفاته عام 1245هـ = 1828م. وكان الشاعر أمين الجندي قد مدح الشيخ عبد الستار بمناسبة زيارة قام بها للمدينة المنورة - كما أظن - عام 1242هـ وفيها يقول:

شمس المعارف من وراء ستائر	بزغت تقبل ذيل عبد السائر
مفتي الأنام وشيخ إسلام الوري	من لم يزل للدين أعظم ناظر
هو روضة الفضل التي أفنانها	للهدى تطلع كل نجم زاهر
نجل الأتاسي الذي بسما الغلا	ورث المفاخر كابراً عن كابر
أعنى ابن إبراهيم كعبة قصدنا	بدر الهدى بحر العلوم الزاخر (7).

### -محمد خالد الأتاسي:

ولد الشيخ محمد خالد الأتاسي في حمص سنة 1253هـ = 1837م (8) واتجه إلى تحصيل العلوم الشرعية، وأصبح مكيماً بها ضليعاً، وتسلم منصب الإفتاء في مدينته، وعُرف في عالم القانون بشرحه المبسوط لـ "المجلة" (9) المشتملة على الأحكام القانونية أيام الدولة العثمانية، ولا يزال هذا الشرح مرجعاً قانونياً هاماً. ولا يهمننا من الشيخ هذا، وإنما نتجه إلى الجانب الفني الجميل ولا سيما أنه عرف عنه أنه يقول الشعر، وذكر له المرحوم أدهم الجندي أبياتاً قليلة (10)، وشاءت المصادفة أن أقع على أوراق منتزعة من كنش قديم جمعت فيها قصائد للشيخ محمد خالد ولابنه الشيخ محمد طاهر، وإذا كانت هذه القصائد لا تكفي لبناء دراسة موسعة، فإنها تكفي -على الأقل- لتقديم لمحة عن المقدرة



كهف حصن منه الهدى سلّ نصلاً      غيثٍ لصبّ أرحّت عنه الضلالة

مستجير يا مَنْ أجزت الغزاة

وتعدّ الإشارة إلى بعض المعجزات النبوية من الأمور اللازمة في قصائد المديح النبوي، وبعض القصائد تتجه إلى استيعاب جميع معجزاته صلى الله عليه وسلم، وقد ورد شيء من ذلك في قصيدة الشيخ الأتاسي:

فاض من إصبعيه ماء نميرُ      آيةً، فاحتساه جُم غفيرُ

فاتح، خاتم، سراج منيرُ      قل، لك الله إن شهدت جماله:

مستجير يا مَنْ أجزت الغزاة

وينهي الشاعر قصيدته ببعض المقاطع الجميلة معتذراً عن إساءاته، مُظهراً تواضعه معترفاً بتقصيره، راجياً الغفران:

يا إلهي أنا المسيء فعالي      ويبحر الأوزار أغرقت حالي

وبباب الرجا خلعت نعلي      قائلًا والغفران أرجو كماله

مستجير يا مَنْ أجزت الغزاة

وصلاتي تركو بنشر الخزامي      حملتها أيدي الدعا بالسلامي

لطبيب القلوب مسك الختام      من سرى ذكره وأعلى مقاله

مستجير يا مَنْ أجزت الغزاة

وإلى آله البدور الكواملُ      وصحاب بهم نزاح الغوائل

ما شدا خالد الأتاسي قائلُ      مستغيث يا مَنْ ختمت الرسالة

مستجير يا مَنْ أجزت الغزاة

والنموذج الثاني بين أيدينا قصيدته في مديح مدحت باشا (13) والي سورية حين وافى حمص في 15/شعبان سنة 1296هـ، وبدأها بطائفة من الحكم مستمداً معانيها من محفوظه الواسع، ويستطيع القارئ الباحث أن يستدعي إلى ذاكرته وهو يقرأ، عدداً من مصادر هذه القصيدة، وهنا يمثل المتنبي والطغرائي (14) وابن الوردي (15) وغيرهم ممن كان حفظ شعرهم تقليداً بين مثقفي الشيوخ آنذاك، وكان إيراد الحكم في مطلع قصيدة الأتاسي تمهيداً لإيراد صفات الممدوح التي تنسجم

مع الحكم المذكورة:

ألا إن أوج السَّغْد لاحت فراقِده  
تنبه أخا البأساء واركب مطية  
لعمرك ما العلياء تدرك بالرجا  
معالي الأماني لم ينلها سوى فتى  
ومن لم يكن جلدًا على اللسع لم يذق  
ومن لم يجذ بالنفس وهو مؤمل  
ومن يتجرع ماء بحر يعوم في  
فيا لابساً ثوب التكاثر قانعاً  
لموتك أخرى من حياتك خاملاً  
تقلد حسام العز واضرب براحة  
وإياك لا يغرك وغد رقي للغلا  
أما قيمة الإنسان ما هو محسن  
وإن لم يساعدك الزمان على المنى  
فلا تعتبه حيث كنت مهذباً

وهنا تنتهي مقدمة القصيدة الحكيمة لتتصل بما يسمونه في البديع بحسن التخلص ليصل بعدها

إلى غرضه:

ولكنما أشكو [الزمان] (16) لسيد  
أجل وزير وازرته يد الغلا  
له انقادت الأيام وهي ولاته  
يراد أبكار البها وتروده

الخ..

وتتتابع هنا معاني المديح التقليدية، فمدحت باشا هو الأسد الضاري الوقور ذو النور، الشهم العادل، وقد عمّت السعادة مدينة حمص لأنه حل بها، وتختتم القصيدة بأبيات متضرعة متذلة، والضراعة نعمة كانت شائعة آنذاك، ونحن اليوم لا نسيغها ولا نقبلها، لكنها كان لها قبولها وكان لها

## \*\*\* التراث العربي \*\*\*

ما يسوغها:

فلا تُهملن من عبد بابك سيدي  
عبودية شاعت فيشمت حاسده  
بسوق كساد ألقى الشعر إتما  
بأوصافك الحسنى لقد راج كاسده  
فسمعاً لها لازلت أهلاً لمثلها  
بمدحك يفتّر الزمان و"خالده"

وإذا كان مما لا شك فيه أن الشيخ كان راسخ القدم في العربية والشريعة فإنه مما لا شك فيه أيضاً أن آفة العصر الأسلوبية وأعني بها الركافة قد تمكنت أن تخرق شعر الشيخ، ويمكنك أن تضع يدك عليها في كثير من المواضع، خذ قوله مثلاً: "غث لصب" وانظر إلى قوله:

له نور فكر، كل أعمى يكاد أن يرى في الدجى لو كحلته مراوده

وعلى كل حال فإن شعر الشيخ خالد يبقى في حيز ما يسمونه شعر العلماء أو شعر الفقهاء، وهو شعر كان له حضور في زمانه.

توفي الشيخ المفتي في حمص في تشرين الأول 1908.

### -عبد القادر نبهان(17)

هو الشيخ عبد القادر بن عمر نبهان، وكنا ترجمنا لوالده في التراث العربي(18) وأشرنا إلى نشأة عبد القادر على طلب العلم وقراءته على علماء مدينته، إذ كان والده يصحبه وإخوته أحمد وحامد ومحمد إلى الجامع النوري الكبير كل يوم بعد الظهر ليحضرُوا حلقات العلم الموجودة آنذاك. ويذكر صاحب "التاريخ الحمصي"(19) أن الشيخ عبد القادر غادر حمص إلى دمشق سنة 1297هـ وأنه عمل بالتجارة، كما عمل مصححاً في المطبعة، ثم قال: "ثم اتخذ مصلحة الحمامة" أبو كات"(20) وبرع بها. وذكر الحصني(21) أن الشيخ عبد القادر "أتى دمشق وحضر على فحول علمائها حتى برع في أكثر العلوم والفنون" وقال فيه "إنه حسنة من حسنات الدهر"(22) وسمعت أن الشيخ ألف عدداً من الكتب، لكنني لم أر سوى واحد منها وهو الموسوم بـ "بديع المعان في شرح قصيدة ابن قضيب البان" وهو شرح كبير لقصيدة ابن قضيب البان (ت1096هـ=1685م) في المديح النبوي وأولها:

أهلاً بنشر من مهبط زُرُود  
أحيا فؤاد العاشق المنجود  
وروى شذاً خبر العقيق ففجرت  
منه عيون الدمع فوق خدودي

وقد اعتنى الشيخ عبد القادر بشرحها شرحاً امتزجت فيه السيرة النبوية بنحو العربية وصرفها وبلاغتها واتسع في ذلك، فجاء شرحه في "340" صفحة من القطع الكبير(23).

## ❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

كان الشيخ عبد القادر يقرض الشعر، فقد ذكر الحصني أن عمر نبهان ابن الشيخ عبد القادر جمع كثيراً من شعر أبيه، ويبدو أن ما جمعه قد ضاع أو دخل مكتبة ما، لأن مكتبة الشيخ الضخمة قد بيعت بعد وفاته، ولا يزال مصلى صغير في دمشق يحمل اسمه إلى اليوم، وهو المصلى الذي يتوسط سوق مدحت باشا.

ولد الشيخ في حمص عام 1263هـ = 1845م وتوفي بدمشق عام 1332هـ = 1912م.

أما شعره فإنني وقعت على شيء منه في أوراق قديمة، وما وصل إلي يتألف من مقطوعات ذاتية وقدود ومديح، وقد يقرأ الشيخ كتاباً فيعجبه فيسطر بيتين على غلافه في تقيظه، فمن ذلك ما كتبه بخطه مقرظاً كتاب "كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار" (24):

كتاب معانيه هي البكر رشفة      وليس يراها قط غير المحارم

ويكفيه فضلاً أنه إن نسبته      فنسبته للعز مع ابن غانم

وتدل أبيات من شعره على أنه نشأ معتمداً على نفسه معتداً بما وصل إليه من مكانة، قال مفتخراً بنفسه ناعياً على بعضهم تردده إلى أبواب الأغنياء وذوي المكانة ممن كانوا يدعونهم بـ "الذوات":

لنا الشرف الذاتى أضحى ورائة      وما هو إلا بالشهامة والمجد

صنائعنا المعروف والبر والتقوى      وحسن الوفا بالعهد والصدق والقصد

وليس لنا فى غير فضل إلها      تعلّق آمال لدى القرب والبعد

فإن أعرضت عنا "ذوات" زماننا      وإن أقبلت، فالحال عندي على حدّ

فقل للذي أضحى التردد دأبه      إليهم: أضعت العمر فى غير ما يجدي

ومما يتصل بهذا المعنى بسبب قوله:

المرء يسعد فى الدنيا إذا اجتمعت

والعلم والدين والتوفيق يتبعه

والمال والجود مع حظّ يشبّه

فصاحة، طيب فرع قد زكا ونما

فهو الكريم الذي ما خاب سائله

فيه الخصال التي منها رضا الله

والصدق فى القول والإخلاص لله

تواضع، ومزيد الشكر لله

وحسن خاتمة فاطلب من الله

وهو الغنى، فهل أغنى من الله

أما قدوده التي وقعت عليها فإنه جعل مضمونها مديح الرسول معرضاً عن الغزل، ومن ذلك



## \*\*\* التراث العربي \*\*\*

قوله في قدّ "أنا السبب بلّلي جرى" "صبّا":

وعمّ بالفيض الأعم

يا خير من ساد الورى

فأمنحه ضيفان الكرم

فى جود جدواك القرى

لازمة

وخصه ربّ السما

أعلى مقامات العلا

يا مصطفى يا من سما

عند الذي جلّ علا

يا شافعاً يوم الظما

بالاصطفا دون الملا

حكم القضاء فيما ألم

اشفع لمن فيه جرى

وكذلك فعل في قدّ آخر هو قدّ "حبك ملك قلبي" قال:

بل بهجة الأكوان

نور الهدى طه

عند الرفيع الشان

أعلى الورى جاها

لازمة

يا أحمد المختار

يا سامى القذر

من زلّة الأوزار

كن شافعى فى الحشر

إن لم يكن لي جاز

واضنيعة العمر

يا معدن الإحسان

حاشاك يا ذخري

دور

يا صاحب المعراج

يا أشرف الرسل

يا ذا اللّوا والتّاج

يا منبع الفضل

قد صاح في الإدلاج

هل سائلاً مثلي

يا رحمة الرحمن

أرجوك يا سؤلي

دور

على النبي الأمجد

أزكى صلاة الله

مغ صحبه سرمد

والآل آل الجاه

صَبِّ وَمَا أَنْشَدَ

مَا هَامَ فِي شَجْوَاهِ

دَارِكَ فَتَى نَبْهَانِ

يَا نَوْرَ عَرْشِ اللَّهِ

### -محمد السكاف (25):

ولد الشيخ محمد السكاف في حمص عام 1842 ونشأ في طلب العلم وكان في مدينته مشهوراً باتساع الثقافة وبالتبحر في العلم، وكان ذا قدرة في الجدل والمناظرة. ذكره الخوري عيسى أسعد (26) في مقدمة كتابه "تاريخ حمص" واعترف بفضل علمه وقدرته على الإفادة، كما ترجم له الوفائي ترجمة موجزة ذكر فيها حادثة تدلّ على اتساع أفقه وعمق تفكيره بين معاصريه، فقد ذكر الوفائي أن الشيخ السكاف ناقش المفتي واستطاع أن يقنعه بكروية الأرض، وقال عنه الوفائي: "وما أظن أن أحداً يسأله عن شيء ولا يعرفه، بل هو عالم في جميع العلوم" (27) وإذا نزعنا من قول الوفائي ما فيه من مبالغة وشديد إعجاب واقتتان فإننا نستطيع تصور سعة ثقافة الشيخ في نظر أبناء زمانه.

كان الشيخ طلعة، طلب العلم كما يقال من المهد إلى اللحد، ولم ينقطع عن طلب العلم والمعرفة حتى بعد أن كفّ بصره، فقد كان يحمل كتابه، ويذهب إلى مَنْ يقرأ له، وقد طوّف في الآفاق وجاب البلاد وخبر العباد وأقام باليمن عشر سنين وزار الهند وأقام في مكة ثلاث سنين تعلم فيها علم الفلك، وكان يعمل بالتجارة وينهل من مناهل العلم.. وعاد وألقى عصا التسيار في مدينته وكتب عدداً من الكتب، منها كتاب في علم الفلك، ضاع فيما ضاع من آثار الشيخ التي لم يبق منها شيء، حتى مكتبته النفيسة الرائعة التي أفنى عمره في جمعها ذهبت وتبددت..

علمتُ من أحاديث الشيوخ أن الشيخ السكاف كان يقول الشعر، بل قيل لي إن له الكثير من الشعر، وطمعت في الوقوع على شيء منه.. ولكن عدت بخفي حنين.. ثم تهاوى إليّ أن له ابناً في الثمانين ما يزال حياً ويحفظ شعر أبيه.. فعلاً فقد زرته -وذلك منذ عشرين عاماً- وكتبت ما يحفظه، لكنّ هذا المحفوظ كان بعيداً عن روح العصر -عصر الشاعر- لأن الابن لم يكن يهتم برواية شعر أبيه، وإنما كان يحفظ منه المطرزات، والمطرزة مجموعة أبيات إذا أخذ الحرف الأول من كل بيت، وجمعت الحروف ركّب منها الاسم المقصود. فمن ذلك هذه المطرزة في اسم "محمد":

وأجملَ الرِّيمَ بينَ الرُّندِ والخُزمِ

ما أحسنَ البدرَ في داجِ من الظُّلَمِ

بعطرِ وردٍ يحاكي طيبَ نشرهم

حيّاً الحيا حَيَّ مَنْ أهواه من صغرِ

كالزهر في الروض في حبّ الغمام رُمي

محبوب قلبي بهيج الحسن ذو أدبِ

وريقه الشَّهد يُخيي دارسَ الرَّممِ

دري لفظِ كأن الدّر مبسمه

وقال مطرزا في اسم "توفيق":

تمايل وانثى واهتزّ تيهاً  
ونادى إنّ خذي فيه نار  
فقلت له: اسقني من ماء خذ  
يوذ المجرمون نعيم وجهي  
قال بلى فإن اليوم فيها  
وغلّى الشمس بالليل البهيم  
وماء كالنعيم وكالجحيم  
فقال: محرّم ذا ع اللّيم  
فقلت له ولا نار الجحيم  
لذاغة عقرب الصدغ الأليم

ومن شعره قوله مخمساً قصيدة تعبيراً عن حبه الإمام علياً كرم الله وجهه:

نفسى بحبّ علي المرتضى طربت  
والناس من قرظ إخلاصي له عجت  
رضعت ثدي الولا من حرّة نجبت  
لا عذب الله أمي إنها شربت  
حبّ الوصى وغذتيه باللبن

الحمد لله فى سرّ وفى علن  
وكم حقوق لها غدي ومن من  
طابت وطبت فيا لله من لبن  
وكان لى والدّ يهوى أبا حسن  
فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسن

ولايتى لأمير النحل قد ثبتت  
بمهجتي كثبوت الطود وارتسمت  
فلا تلمني إذا روي بها فنيّت  
لا عذب الله أمي إنها شربت  
حبّ الوصى وغذتيه باللبن

لذا ترانى مشغولاً مدى الزمن  
بحبه هائماً فى السرّ والعلن  
وهكذا كان قومي من ذوي حسن  
وكان لى والدّ يهوى أبا حسن  
فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسن

توفي الشيخ في حمص عام 1937م

محمد طاهر الأتاسي (28)

هو الشيخ محمد طاهر بن الشيخ محمد خالد بن عبد الستار الأتاسي، ولد في حمص عام

A decorative horizontal line consisting of a series of repeating stylized flower or star-like motifs.

1276هـ = 1860م، وقرأ على علماء عصره بدمشق وتابع تحصيله في الأستانة وعاد إلى مدينته، وتولى منصب الإفتاء عام 1914. وكان أمراً طبيعياً أن يخلب عليه سمت العلماء الفقهاء على سمت الأبناء الشعراء مع أنه كان مكثراً من قول الشعر وكان ذلك عنه معروفاً، قال الوفائي في "التاريخ الحمصي" معرّفاً بالشيخ على طريقته في المبالغة: "الشيخ طاهر الأناسي العالم الفاضل، أئقن جميع العلوم وفاق على الشعراء بالشعر، فكم له من قصائد رائعة وألفاظ دقيقة وقُدود شتى، ولو كان عنده علم الموسيقى لفاق على الشيخ أمين الجندي(29)، وكان بالشعر يفوق على والده خالد أفندي المفتي"(30).

كان الشيخ حريصاً على قراءة الأدب والشعر حتى في مرحلة الإفتاء وعندما كان منهمكاً في سهره المتواصل لإتمام "شرح المجلة" وإخراجها، وكانت تحت يده مكتبة ضخمة غنية، وقد حدثني السيد سعيد محمدكي السباعي أن الشيخ محمد نديم الوفاي زار المفتي فوجده يقرأ مسرحية "مجنون ليلى" لأمير الشعراء أحمد شوقي، فظهر عليه الاستغراب والدهشة للمفتي شارح المجلة يقرأ مسرحية شعرية، فقال له المفتي: "تدوا أعلامكم بالأدب" فإنه كان يستروح إلى قراءة الأدب بأساليبه الجميلة وعواطفه الجمة من كتبه ذات الطابع القانوني الفقهي الجاف.

كتب المرحوم أدهم الجندي ترجمة موجزة للشيخ محمد طاهر وأورد له بضعة أبيات من شعره، ولم أر له شعراً مطبوعاً فيما عدا ذلك.. ثم وقعت على مجموعة شعرية خطية (كناش) فيها عدد من قصائد الشيخ تدور حول مديح بعض الولاة والعلماء إضافة إلى المديح النبوي، وتكثر في قصائده اصطلاحات الفقه وغيره، ويبرز تأثره الكبير بأساليب العصر العثماني وكأنه لم يتأثر بأساليب مدرسة الإحياء الجزلة العالية، مع العلم أن شعر أمير الشعراء شوقي كان يملأ سمع الزمان آنذاك.

فمن شعر الشيخ قوله مادحاً أحمد مهدي أفندي الأيوبي الدمشقي حين وافى مع مدحت باشا إلى حمص في 15 شعبان 1296هـ:

يا سعودي هذا زمانك عودي

رُبَا عَلَان طِيب عِش رَغِيدِ

طَرِبْتُ بِالْحَدِيثِ لَيْسَ بَعُودِ

أَيُقِظُ الصَّبَّ بَعْدَ ذَاكَ الرُّقُودِ

لَذَّةُ الْقُرْبِ مِنْ جَنَّاتِ الشَّهَادَةِ

بالأمانى لا بابنة العنقود

للندامي كالشمس عند الصعود

بِالْأَحَادِيثِ عَنْ أَهْلِ الْعَهْدِ

بربيع الهاقد اخضر عودي

وأعيدي عيدي فقد غرد الطنـ

أرجّ بالحبیب لیس بعوید

ليت شعري هل التواصل بعث

**فانتبهنا من سكرة الموت نجنى**

یا مدیر الاقداح نحن سکاری

تلك صهباء أنسنا فهي تجلى

خَلَّ عَنْكَ الْكَاسَاتِ هَاتِ وَحَدَّثْ

هم مماتى إن يصرموا حبل وصلّى  
هُم شرابي والغيرُ عندي سرابٌ  
ثم يحسن التخلص إلى غرضه فينتقل إلى الترحيب بمقدم الأيوبي ويشرك معه عناصر الطبيعة:  
سمَح الدهر بالذي نرتجيه  
مرحباً مرحباً بيدر تمامٍ  
مُضْمَرٌ بالجلال عنا كما قد  
جاء يسعى من أوجهِ فرأينا  
وأنتنا البشرى ببيض ليالٍ  
وغدا الروض باسماً عن ثغور  
هم حياتي إذا وقوا بالوعود  
هُم جنائي وهُم جنانُ الخلود  
رَبّ عَذْبٍ جرى من الجلودِ  
زَيْنِ الرحب مثلَ عَقْدٍ بجيدٍ  
أُضْمِرْتُ "أَنْ" مِنْ بعد لام الجودِ  
أَوْجُهَ السَّغْدِ بالهلال السعيدِ  
مُشْرِقاتٍ على الحوادثِ سودِ  
من أقاح يزرّي بدرٌ نضيدِ

ثم يقول:

إن تشككت في معاليه جاءت  
ولأهل الآداب إن تتسبوه  
عشقه الجوزاء حتى تجلت  
ذو خصال للمدح منها ابتهاج  
من أناسٍ قد بيضوا للبرايا  
ويختتم القصيدة بقوله:  
يا رفيع الجناح لا زلتَ شهماً  
يرقص الشعر حين أتلو ثناكم  
لك أوصافه بألف شهود  
كان منهم مكان بيت القصيد  
بنطاق، تومي له من بعيد  
فهني أشهى من ريق ثغر برود  
صحف الدهر من سواد النكود

حائز السبق بالجمال الوحيد  
وتقول الأيأم: هل من مزيدٍ

وعناصر الصنعة البديعة فاقعة في أبيات القصيدة وفي قصائده الأخرى التي لا يسمح المقام بإيرادها لطولها، لذلك سأقتبس من بعضها أبياتاً، فمن ذلك قوله من قصيدة يرثي بها الشيخ أحمد أفندي مسلم الكزبري (31) الدمشقي:

ما للنفوس جرت من الآفاقِ  
ما للصباح بدا بوجه قاطبٍ  
ما للعلا مسودة الآفاقِ  
من بعد رَوْنَقِ حسنه البراقِ

ما للجبال الراسيات تزلزلت  
جزعاً، أهذا يومُ كشف الساقِ  
ما للدروس تنكست أعلامها  
وغدت من الأحزان في إطراق  
ثم يقول بعد سبعة وثلاثين بيتاً:  
يا واحداً في فقدّه قد جردت  
خوذ الفضائل أجمل الأطواقِ  
إن غاب شخصك بين أطباق الثرى  
فمقام فضلك فوق سبع طباق  
أو كنت أوحشت الأمم مودعاً  
فالحور منك استأنست بتلاق  
ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى  
طود الهدى يسري على الأعناق  
ما كنت أحسب قبل دفنك أن أرى  
بحراً ببطن الرمس خلّو مذاق

وبين يدي قصيدة أخرى في خمسة وستين بيتاً يمدح فيها أستاذه الشيخ بدر الدين بن الشيخ يوسف المغربي ويعدّد فيها جملة من مؤلفات أستاذه، وله غير ذلك من القصائد والمقطعات كالتهنئة بمولود أو تشطير أبيات أو تخميسها، وله في المديح النبوي قصيدة جاءت في 125 بيتاً.  
توفي الشيخ في حمص عام 1940.

### - الشيخ مصطفى الترك (32)

لم نعرف تاريخ ميلاد الشيخ ولا تاريخ وفاته، لكننا نعرف على وجه القطع أنه كان أستاذاً للشيخ الشهيد السيد عبد الحميد الزهراوي، تعلم الزهراوي عنده القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية، وكانت بينهما مطارحات شعرية، وقعت على واحدة منها ونشرتها مجلة التراث (33)، وفي كتاب "التاريخ الحمصي" نبذة عن مصطفى الترك فحواها أن الشيخ أصله من إزميد الخشب بجوار استانبول، كان والده أحمد قد حضر مع عسكر السلطان عبد المجيد (34) لمحاربة إبراهيم باشا (35)، ثم توطن مدينة حمص، وذكر صاحب التاريخ أن الشيخ مصطفى كان عالماً من علماء الجدل ومن شعراء أهل الحقيقة.. ويبدو لي أن شعره كان كثيراً متداولاً بين صوفية مدينته في عصره، فقد أتيح لي أن أطلع على غير ما مجموعة شعرية مخطوطة، وكان في كل منها قصائد للشيخ الترك الذي كان معظم شعره فيما بدا لي في التصوف وكانت له تخميسات وتشطيرات، فمن مشطراته هذه الأبيات التي تدور حول معنى وحدة الوجود:

إن الوجود وإن تعدّد ظاهراً  
صورّ تلوح وبعد ذلك تعدّد  
نادى به المعنى الذي هو واحد  
وحياتكم ما فيه إلا أنتم

## \*\*\* التراتل العربى \*\*\*

أنتم حقيقة كل موجود بدا  
قد أعربت ما ثم غير وجودكم  
فى نكتة المرأة سر معلّم  
ووجود هذى الكائنات توهم

ومن شعره الذى يجرى فى فلك "الحقيقة المحمدية" وهو تشطير أيضاً:

وما مصدر الأشياء إلا محمد  
تطاول بالإعجاز مدح جنابه  
فكل مليح من سناه سطور  
وناهيك طول المدح فيه قصور  
بدائرة التكوين نور جماله  
وفى حضرة الإمكان جمع مقامه  
لأعياننا فيض الوجود يعير  
عليه جميع الكائنات تدور

وله أيضاً مخمّساً ما سبق ذكره فى الموضوع نفسه:

جمال رسول الله نور مؤقّد  
أقول وإنى فى المقال مؤكّد  
ومنزله بين الكواكب قرقّد  
وما مصدر الأشياء إلا محمد  
وناهيك طول المدح فيه قصور

بدا تحت فرع الكون قرق هلاله  
مليح وهذا الحسن رسم خياله  
فزين جيد الدهر عقد مثاله  
بدائرة التكوين نور جماله

عليه جميع الكائنات تدور

ومن شعره:

سألت أحبتي: ما كان ذنبى  
وقلت لعننى ألقى جواباً  
لديهم عندما غفل الرقيب  
أجابونى وأحشائي تذوب  
فأسهمه أبت يوماً تُصيب  
فما حسناته إلا ذنوب  
ومن طلب العلا من غير سغب

ومن تشطيره:

لو قابل البدر بعضاً من سناك غدا  
أو رام ينظر فى مرآك عنك لوى  
صغقُ الفناء له فى الحال موقوتا  
حيران ذا كلف بالنور مبهوتا

## ❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

ولو مشيت على الحصباء صيرها  
وليس من عجب أن راح يظهرها  
إكسير سفدك تبراً بُثّ مفتوتا  
شعاع خديك مزجاناً وياقوتا

ومن شعره في التصوّف:

بدت لي شمس الوصل فانكشفت حُجبى  
وما نقت هجراً والحبيب مُسامري  
ولاحت لي الأنوار في حالة الجذب  
يوالي فوادي بالتداني وبالقرب  
وغيبت عن الأشخاص مذ كنتم معى  
لئن حركتني نحوكم نسمة الصبا  
إذا غاب معانكم تذكرت طيفكم  
رأيت فؤاد الصب ينشد في الركب  
ومَن لم يجذ ماءً تيمم في الركب  
إذا اشتقت رؤياكم نظرت إلى القلب

□□

### □ الإحالات والتعليقات

- 1- انظر العدد 33 من مجلة التراث العربي صفر 1409 هـ = تشرين الأول 1988 ص 88 وما بعدها.
- 2- انظر حلية البشر 2: 846
- 3- الشيخ عبد الرزاق البيطار: ولد في دمشق سنة 1253 هـ وتلقى على علمائها. كان ممن اشتهر بالإنكار على أرباب الخرافات، ولا تأخذه في إبانة الحق لومة لائم. له عدد من المؤلفات. توفي بدمشق عام 1335 هـ.
- انظر ترجمته بقلم حفيده الشيخ محمد بهجة البيطار في حلية البشر 9: 1 وما بعدها وكان الشيخ محمد بهجة قد نشر هذه الترجمة في مجلة المنار بالقاهرة. المجلد 21 ص 317.
- 4- حلية البشر 2: 847
- 5- أبو منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد المتوفى 429 هـ صاحب يتيمة الدهر.
- 6- حلية البشر 2: 847
- 7- الأبيات من أوراق قديمة لدى.
- 8- انظر أعلام الأئمة والفن 1: 38 ومعجم المؤلفين 4: 97 وذكر في الكتابين باسم خالد ودون اسمه على شرح المجلة: محمد خالد
- 9- نشر شرح المجلة في ستة أجزاء حسب التسلسل الآتي:

- ج1- 1930 مطبعة حمص - حمص
- ج2- 1931 مطبعة حمص - حمص
- ج3- 1933 مطبعة حمص - حمص
- ج4- 1934 مطبعة حمص - حمص
- ج5- 1936 مطبعة السلامة - حمص



## التراث العربي

- ج6- 1937 مطبعة السلامة- حمص
- 10- أعلام الأدب والفن: 38، 39
- 11- انظر خبر الغزاة المشار إليه في شرح الهزيمة لابن حجر الهيتمي: 71 وشرح الشفاء للقاضي عياض 1: 639 والخصائص الكبرى للسيوطي: 61 وحدائق الأنوار لابن الربيع 1: 237
- 12- من قصيدته المشهورة بنهج البردة وأولها:  
ريم على القاع بين البان والعلم  
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
- 13- مدحت باشا 1822-1883
- مدحت باشا أو أحمد مدحت ابن حاجي حافظ أشرف أفندي، أبو الأحرار العثماني، ولد في اسطنبول وكان أبوه قاضياً وسماه "محمد شفيق" وغلب عليه اسم "أحمد مدحت" ثم "مدحت". تقلب في مناصب هامة منها منصب الصدارة العظمى. وأصدر الدستور العثماني في أواخر 1293هـ = 1876م. وعين والياً على الشام.. ونفي إلى الحجاز. وهناك قتل بأمر من السلطان. وقالت صحف الدولة إنه مات بمرض السرطان.. انظر الأعلام 7: 195 طبعة رابعة.
- 14- الطغراني: الحسين بن علي المتوفى سنة 513هـ وهو صاحب لامية العجم المشهورة وأولها:  
أصالة الرأي صانتني عن الخطل  
وحليّة الفضل زانتني لدى العطل
- 15- ابن الوردي: عمر بن مظفر المتوفى عام 749هـ وهو صاحب اللامية المشهورة:  
اعتزل نكر الأغاني والغزل  
وقل الحق وجانب من هنزل
- 16- ما بين معقوفتين زيادة مني يقتضيها السياق
- 17- عبد القادر بن عمر نيهان له ترجمة في منتخب تواريخ دمشق للحصني 2: 762
- 18- العدد 33-1988
- 19- التاريخ الحمصي للشيخ عبد الهادي الوفاي المتوفى 1909م وكتابه لا يزال مخطوطاً لدى.
- 20- (أبو كات) أي محامٍ وفعلًا قال عنه الشطي في كتابه أعيان دمشق: محامٍ بارع.
- 21- الحصني: محمد أديب بن محمد بن عبد القادر، تقي الدين الحصني الحسيني: من أهل دمشق، ولي نقابة أشرافها مدة وعُني بتاريخها فجمع كتاباً سماه "منتخبات التواريخ لدمشق". كان مولده بدمشق عام 1292هـ = 1874 وتوفي بدمشق عام 1358هـ = 1940م. عن الأعلام 6: 252 طبعة ثالثة
- 22- منتخبات التواريخ: 762
- 23- هذا الشرح بحوزتي وقد خطّه بقلمه الخطاط صدقي بن علي القرشي الحنفي عام 1318هـ.
- 24- هذا الكتاب لعبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي المقدسي المتوفى سنة 678هـ طبع طبعات كثيرة منها طبعة عام 1280هـ وطبعة في دمشق بتحقيق الدكتور مختار هاشم وأخرى في دمشق سنة 1988 بتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية وصبحي حباب.
- 25- لم أر من خصّه بترجمة خاصة واسمه محمد طه السكاف.
- 26- الخوري عيسى أسعد 1878-1949 انظر ترجمته في تاريخ حمص -القسم الثاني: 499.
- 27- التاريخ الحمصي للوفاي: مخطوط.
- 28- محمد طاهر الأتاسي، ذكره الزركلي باسم طاهر، وقد أثبتنا ما دون على غلاف شرح المجلة، تعلّم في مدرسة

## \*\*\* التراث العربي \*\*\*

القضاء الشرعي بالأستانة، وأخذ عن السيد محمود الحمزاوي والشيخ بدر الدين الحسني في دمشق. وولي القضاء سنة 1306هـ بحوران فنبلس فالكرك ثم في دنزلي وأذنة والقدس والبصرة. ثم تولى الإفتاء بحمص.. عن الأعلام 3 : 319 طبعة ثالثة. وانظر تاريخ حمص القسم الثاني 497 وفيه أن ولادته كانت سنة 1854م. وانظر معجم المؤلفين 5: 35

29- تقدمت ترجمته في التراث العربي. العدد 33.

30- خالد أفندي المفتي هو محمد خالد الأتاسي الذي تقدم الحديث عنه.

31- انظر ترجمته في حلية البشر 1: 146

32- لم أر من أفردته بالترجمة سوى كتاب "التاريخ الحمصي" المخطوط.

33- مجلة التراث العربي: العددان 25-26 جمادى الأولى 1407هـ - كانون الثاني (يناير) 1987م وكتاب عبد الحميد الزهراوي: الأعمال الكاملة 2: 457

34- السلطان عبد المجيد ولد سنة 1237هـ وتولى السلطنة سنة 1255هـ = 1839م وتوفي سنة 1277هـ = 1861م.

انظر أخباره في كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية من ص 237 إلى ص 287.

35- إبراهيم باشا:

هو إبراهيم بن محمد علي باشا، ولد في "تصرتلي" بالقرب من قوكة بالرومللي سنة 1204هـ = 1790م وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة 1220هـ وأرسله أبوه أو متبنيه محمد علي سنة 1231هـ بحمله إلى الحجاز ونجد.. وفي سنة 1247هـ سيره بجيش إلى سورية فاستولى على عكة ودمشق وحمص وحلب وتجاوز جبال طوروس وقارب الأستانة فتدخلت الدول الأجنبية وعقدت معاهدة كونتاهية (1833م).. توفي بمصر سنة 1264هـ = 1848م. عن الأعلام 1: 66 ط3.

□□

### □ أهم المصادر والمراجع

-الأعلام: خير الدين الزركلي طبعة ثالثة وطبعة رابعة. دار العلم للملايين. بيروت 1979  
-أعلام الأدب والفن - أدهم الجندي ج1 مطبعة مجلة صوت سورية 1954 ج2 مطبعة الاتحاد بدمشق 1958  
-تاريخ حمص. الخوري عيسى أسعد- القسم الأول طبع في مطبعة السلامة بحمص 1939  
-تاريخ حمص- منير الخوري عيسى أسعد- القسم الثاني. مطرانية حمص الأرثوذكسية 1984  
-التاريخ الحمصي- عبد الهادي الوفائي- مخطوط  
-تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد بك المحامي- دار الجيل- بيروت 1977  
-حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر- الشيخ عبد الرزاق البيطار حقه ونسقه وعلق عليه حفيده محمد بهجة البيطار.

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1961- 1963

معجم المؤلفين- عمر رضا كحالة- مطبعة الترقى بدمشق 1958

مقالات وكتب: عبد الحميد الزهراوي -الأعمال الكاملة. إعداد وتحقيق د. عبد الإله نبهان -وزارة الثقافة- دمشق 1995

منتخبات التواريخ لدمشق- محمد أديب آل تقي الدين الجصني- دار الآفاق- بيروت 1979.

□□□